

التضمين النحوي ومقاصده - آيات من القرآن الكريم أمودجا-

Grammatical inclusion and its purposes -verses from the Holy Quran as a model-

بن تواتي عبد القادر
جامعة عمارثليجي، الأغواط (الجزائر)
amel@live.com1967

حساني سهيلة*
جامعة عمارثليجي، الأغواط (الجزائر)
hassanisohila2017@gmail.com

تاريخ القبول: 2023/11/08

تاريخ الاستلام: 2021/12/30

ملخص:

يعتبر التضمين من الأساليب العربية الهامة المستخدمة في التعبير عن أدق المعاني، ويقوم على فكرة تضمين اللفظ معنى لفظ آخر بحيث يؤدي المعنيين معا. ولأسلوب التضمين حضور واسع في علوم النحو والبلاغة والعروض، واعتمده علماء التفسير خصوصا في حل وتفسير كثير من القضايا اللغوية والبيانية والعلاقات النحوية، فيوجهون الإعراب والدلالة الصرفية وكثيرا من العناصر الجمالية وفق مفهومه، كما أنه له دورا في تطور اللغة واتساعها. الكلمات المفتاحية: التضمين النحوي - إشراب - المعنى.

Abstract :

Embedding is considered one of the important Arabic methods used in expressing the most accurate meanings. The method of embedding has a wide presence in the sciences of grammar, rhetoric, and presentations, and it was adopted by scholars of interpretation, especially in solving and interpreting many linguistic and graphic issues and grammatical relations.

Key words : Grammatical inclusion / meaning / implication.

* حساني سهيلة.

1. مقدمة:

ظاهرة التضمين من الظواهر اللغوية التي وردت في القرآن الكريم، وهي تقوم على فكرة تضمين اللفظ معنى لفظ آخر بحيث يؤدي المعنيين معاً، ولكن لسعة هذا الباب فإننا نتحدث في هذا المقام عن الجانب النحوي فقط واعتمدنا لأجله المنهج الوصفي التحليلي.

ولأسلوب التضمين حضوره وأهميته، وعلى أساسه يفسر علماء النحو والبلاغة جانباً مهماً من العلاقات النحوية والقضايا اللغوية.

يندرج التضمين في المعاجم اللغوية تحت مادة (ض، م، ن) جاء في لسان العرب ضمن الشيء أودعه إياه، كما تودع الوعاء المتاع، والميت القبر، وكل شيء جعلته في وعاء فقد ضمنته، وفي الحديث: «من مات في سبيل الله فهو ضامن على الله أن يدخله الجنة» ويقال ضمن الشيء بمعنى تضمنه ومنه قولهم مضمون الكتاب كذا وكذا¹ وقال الأزهري: «ضمنت الشيء ضمناً فأنا ضامن وهو مضمون»²

التضمين في الاصطلاح يكتسب مفاهيم متعددة تبعاً للعلوم التي تناولته، وما نقصده بالدراسة هو التضمين النحوي، فقد وجد النحاة أنفسهم أمام واقع لغوي، يتمثل في خروج بعض الألفاظ في سياق لغوي ما عن المعتاد في علاقتها بعناصر التركيب، محاولين أن يفسروا الاستعمالات اللغوية الغير مألوفة، حتى الذين قالوا بالتضمين، لم يكن يعدو كونه تعليلاً نحويًا ومعظم المعاصرين الذين بحثوا في موضوع التضمين أوردوا كلام ابن جني مستشهدين به في تعريفه للتضمين، وفق المفهوم الذي حدده الزمخشري.³

2. نشأة التضمين النحوي وتطور مفهومه:

إن فكرة توجيه المعنى على أساس التضمين نشأت عند البصريين، إلا أن مفهوم التضمين عندهم كما يفهم من ظاهر كلام ابن هشام، لا يعني أن الفعل يدل على معناه ومعنى الفعل المضمن، بحيث يؤدي المعنيين معاً، بل يعني تجرد الفعل المذكور تماماً من معناه الأصلي، واستعمل دالاً على معنى الفعل المضمن فقط، وهذا ليس من التضمين الذي جرى عليه علماء البيان، ومتأخرو النحو.

ولا يختلف مفهوم التضمين عند ابن جني عما عند البصريين فقال: «اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدى بحرف، والآخر بآخر، فإن العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إئذنا بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر، فلذلك جيء منه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه»⁴.

ومثال هذا قوله تعالى: {أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم} (البقرة، الآية 187) نقول رفث بها أو معها، لكن لما كان الرفث هنا بمعنى الافضاء جاءت إلى مع الرفث إشعار بمعنى الافضاء.

وتجدر الإشارة إلى أن معظم المعاصرين الذين بحثوا في موضوع التضمين أوردوا كلام ابن جني مستشهدين به على وجود ظاهرة التضمين في العربية ومنهم من عدّ عبارة ابن جني تعريفاً للتضمين⁵ ولكن الظاهر أن كلام ابن جني يدل على أن اللفظ إذا استعمل في معنى لفظ آخر تجرد من معناه الأصلي، ودل فقط على المعنى الجديد الذي طرأ عليه وعد ذلك من باب الاتساع في مفهوم الترادف ويعقب على كلامه السابق بقوله: « ووجدت في اللغة من هذا الفن شيئاً كثيراً لا يكاد يحاط به... وفيه أيضاً موضع يشهد على من أنكر أن يكون في اللفظة لفظان بمعنى واحد، حتى تكلف أن يوجد فرق بين قعد وجلس»⁶ فهذا القول يدل على أن هذه الظاهرة موجهة على أساس الاتساع في مفهوم الترادف، وليس ما يشير للتضمين بالمعنى العام له.

ويمكن القول هنا أن الزمخشري هو أول من وضع مفهوم التضمين وخرج به من مجال التأويل النحوي والتسويغ اللغوي إلى الأسلوبية البيانية البلاغية، وقد نقل عنه النحاة والبيانون من بعد كابن هشام والسيوطي وأبي حيان وغيرهم.

قال الزمخشري في قوله تعالى: {ولا تعد عينك عنهم} (سورة الكهف، الآية 28) «عدي بـ"عن" للتضمين "عدا" معنى نبا وعلا في قولك: نبت عنه عينه، وعلت عنه عينه، إذا اقتحمته ولم تعلق به، فإن قلت: أي في هذا التضمين؟ وهلا قيل: ولا تعدهم عينك، أو لا تغل عينك عنهم؟ قلت الغرض فيه إعطاء مجموع معنيين وذلك أقوى من إعطاء معنى فد⁷ واللافت أنه صرح بتعليق "عن" بالفعل المذكور "ولا تعد" ولم تعلق بحال محذوفة بالرغم أن هذا عند البيانين عماد التضمين وما هو إلا توجيه للمعنى، وليس تفسيراً نحويًا للعلاقة اللغوية بين الألفاظ في سياق التضمين».

فالتضمين عند الزمخشري كما يظهر يعني تضمين كلمة معنى كلمة أخرى، فتؤدي وظيفتها في التركيب، وتعطي الكلمة مجموع معنيين، وهنا تحديداً لا يفرق الزمخشري بين التضمين البياني والنحوي، ويرى أن التضمين نظام من العلاقات اللغوية محكوم بقواعد النحو.

وقد جعل ابن كمال باشا التضمين البياني عين التضمين النحوي⁸، وهذا هو حقيقة مذهب الزمخشري في التضمين، بعبارة أخرى يأخذ التضمين من الصور كإعطاء اللفظ مجموع معنيين، وذلك أقوى من إعطاء معنى واحد⁹ فهو إشراب لفظ معنى لفظ آخر وإعطاؤه حكمه لتصير الكلمة مؤدية لمعنى الكلمتين، والكلمة قد تغني عن كلمة أخرى لتضمنها إياها، كقوله تعالى: {ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير} (سورة البقرة، الآية 106) فإن "ما" تضمنت معنى "إن" الشرطية لذا جزمت الفعل المضارع

"نسخ" لأن أخذ لفظ حكم لفظ آخر يتضمنه لابد أن يحمل معناه ولذلك عرف الأشموني التضمين « هو إشراب اللفظ معنى لفظ آخر، وإعطاؤه حكمه لتصير الكلمة تؤدي مؤدى كلمتين»¹⁰.

ويصفه ابن جني فيقول « ولعله لو جمع أكثره لا جميعه لجا كتابا ضخما، وقد عرفت طريقه، فإذا مرّ بك شيء منه فتقبله وأنس به، فإنه فصل في العربية لطيف حسن يدعو إلى الأناج، والفقاهة فيها، وفيه أيضا موضع يشهد على من أنكّر أن يكون في اللغة لفظان بمعنى واحد»¹¹ ثم أضاف « فإنه فصل من العربية حسن المقيس».

وهذا التضمين هو الذي قال به سيويه: « من كلامهم أن يجعلوا الشيء في موضع على غير حاله في سائر الكلام»¹².

وقال ابن هشام « قد يشربون لفظا بمعنى لفظ فيعطونه حكمه ويسمى ذلك تضمين وفائدته أن تؤدي كلمة مؤدى كلمتين»¹³.

وقال الزركشي « هو إعطاء الشيء معنى الشيء وتارة يكون في الأسماء وفي الأفعال وفي الحروف»¹⁴. ويرى الأستاذ "عباس حسن" أن الاسترسال في التضمين سيؤدي كنتيجة حتمية لكل ذلك، فلا يوجد فعل-أو شبه فعل- مقصور على التعدية ولا آخر مقصور على الزوم، وهذه غاية الفوضى والإساءة اللغوية التي تحمل في ثناياها فساد المعنى¹⁵، ورغم اختلاف المحدثين والقدامى حول ماهية التضمين، فإنه قائم في العربية وله فوائد أسلوبية لغوية، كما يساهم في تنمية اللغة وتوسيع تعبيرها، ويتيح تأدية معنيين بلفظ واحد بهدف الاختصار والإيجاز، ويعتبر من مفاتيح هذه اللغة وسر من أسرارها وفيه من الإيماء والتلويح ما ليس في المكاشفة والتصريح. والتضمين يمنح اللفظ فوق معناه، والذي تضمنه بالرمز والإيماء غير مصرح بذكره ولا كاشف عن غرضه ويحمل على المعنى بآخر بعيد، والأمثلة على ذلك كثيرة في القرآن الكريم.

3. بعض المصطلحات التي تتقاطع مع التضمين:

1.3. الحمل على المعنى:

حمل لفظ على معنى لفظ آخر أو تركيب معنى على معنى تركيب آخر، فيصبح حكمها النحوي واحد من تذكير المؤنث وتأنيث المذكر لوجود قرينة لذلك، والفرق بينه وبين التضمين هو ترك اللفظ، ويقول ابن الجني في هذا « فقد رأيت بما أوردناه غلبة المعنى لفظ وكون اللفظ خادما للمعنى مشيدا به، وأن ما جيء به له ومن أجله وأما غير هذه الطريقة من الحمل على المعنى وترك اللفظ وإضمار الفاعل لدلالة المعنى عليه»¹⁶.

2.3. التقارض:

قال ابن منظور القرض: القطع، قرضه يقرضه بالكسر قرضا، وقرضه: قطعه ويقال إن فلانا وفلانا يتقارضان الشاء إذا أثنى كل منهما على صاحبه وكأن المعنى أن كل واحد منهما أقرض صاحبه ثناء كقرض المال¹⁷.

والتقارض عند النحاة هو التبادل بين كلمتين في الحكم والشكل والهيئة والمعنى بحيث تعطي الكلمة الحكم أو الشكل أو المعنى الذي يختص بها إلى الأخرى، سواء كانت هذه الكلمة اسما أم فعلا أم حرف¹⁸. ونلاحظ وجود تشابه بين التضمن والتقارض، والتقارض ما هو إلا تضمن لفظ معنى آخر ويهتم بالثاني دون الأول في حين أن التضمن أوسع مجالا ويهتم بالمعنيين دون أن يغفل أحدهما على حساب الآخر.

3.3. المجاز:

يعرفه ابن أثير: « هو ما أريد به غير المعنى الموضوع له في أصل اللغة، وهو مأخوذ من جاز من هذا الموضوع إلى الموضوع الآخر، إذا تحطاه كقولنا زيد أسد، فإن زيدا إنسانا والأسد هو هذا الحيوان المعروف، وقد جزنا من الإنسانية إلى الأسدية أي غيرنا من هذه إلى هذه لوصلة بينهما وتلك هي صفة الشجاعة»¹⁹ ويقول كمال باشا «فإن قلت هلا يلزم أن يكون التضمن كالكناية والمجاز المرسل ركنًا مستقلا من أركان البيان ولم يقل به أحد من أرباب هذه الصناعة قلت نعم»²⁰. وهنا نرى أن المجاز يستعمل دون أن يشرب اللفظ معنى آخر، في حين أن التضمن جمع بين الحقيقة والمجاز لدلالته على المعنى بنفسه وعلى المعنى المحذوف بالقرينة وهذا أبعد من المجاز.

4.3. التقدير:

يقول السيوطي: نقلا عن ابن الحاجب « الفرق بين التضمن والتقدير في قولنا بُني "أين" لتضمنه معنى الاستفهام وضرته تأديبا منصوب بتقدير اللام، وعلام زيد، مجرور بتقدير اللام، وخرجت يوم الجمعة بتقدير في، فالتضمن يراد به المعنى المتضمن على وجه لا يصح إظهاره معه والتقدير أن يكون على وجه يصح إظهاره معه سواء اتفق الإعراب أم اختلف»²¹، نفهم من ذلك أن التضمن لا يجوز معه إظهار الحرف المضمن بخلاف التقدير.

5.3. العدول:

مثال لك ما قرره النحاة في بناء "أمس" لتضمنه لام التعريف بدليل قولهم:

أمس الدابر وليس بعلم ولا مبهم ولا مضاف ولا مضمّر ولا بلام ظاهرة متعين تقديريها²² وأما "سحر" ممنوع من الصرف، إذا أريد به يوم بعينه نحو جنتك يوم الجمعة سحر، ف"سحر" ممنوع من الصرف للعدل ونسبه العلمية وذلك أنه معدول عن "السحر" لأنه معرفة والأصل في التعريف أن يكون ب"ال" فعدل به عن ذلك وصار تعريفه لتعريف العلمية من جهة أنه لم يلفظ معه حرف²³ فالفرق بين العدل والتضمين أن المعدول يجوز إظهاره ذلك أعربوا والتضمين لا يجوز إظهاره معه كأسماء الاستفهام والشرط المتضمنة لمعنى الحرف والعدول أن يريد المتكلم لفظا ويعدل عنه إلى لفظ آخر، يقول السيوطي « قال ابن البرهان في الغرة الفرق بين العدل والتضمين، أن العدل هو أن تريد لفظا فتعدل عنه إلى غيره كعمر من عامر وسحر من السحر، والتضمين أن تحمل اللفظ معنى غير الذي يستحقه»²⁴، كما أن التضمين أوجب في الكلمة المتضمنة البناء ومنع الإعراب في حين العدول أوجب منع الصرف.

4. نماذج من التضمين في القرآن الكريم

إن الأمثلة على التضمين كثيرة في القرآن الكريم وهو من الموضوعات المهمة التي يتوقف عليها فهم معاني القرآن واستيعاب مقاصده ومعرفة دقائق أسراره وبلاغة وبراعة نظمه، فمقاصد الكلام على اختلاف أصنافه مبنية على معاني الحروف التي قد تتشرب أدوات أخرى وتأخذ معناها، ويفهم ذلك من السياق وتعليق الجمل، والتضمين لا يختص فقط بالأفعال بل حتى بالأسماء والحروف، وهذا ما سنحاول إظهاره في الآيات القرآنية الآتية:

1.4. التضمين في الأفعال:

قد يتضمن الفعل معنى فعل آخر مع أداء عمله نحو قوله تعالى: {يقال له إبراهيم} (سورة الأنبياء من الآية 60) والمعنى يطلق عليه هذا الاسم، وأما جملته فتحكي به وتكون في موضع مفعوله ويشمل هذا القول وما تفرع منه كالماضي والمضارع والأمر وما اشتق منه، ومنه قوله تعالى: {قال إني عبد الله} (سورة مريم من الآية 30)، وكذلك "تم" نحو قولهم (تم التسعة بهذا عشرة) بمعنى تصير عشرة والفعل "كمل" نحو قولهم (كمل زيد عالما) بمعنى صار عالما والفعل "تمثل" نحو قوله تعالى: {فتمثل لها بشرا سويا} (سورة مريم، الآية 17) بمعنى صار بشرا.

وذكر ابن مالك هذه الأفعال بقوله مجملا: « وترد الخمسة الأوائل بمعنى صار ويلحقها ما اردفها من آت وعاد وآل ورجع وصار واستمال وتحول وارتد، وندر الالحاق بصار في "ما جاءت حاجتك" وقعدت كأنها قرينة" والأصح ألا تلحق بها آل ولا قعد مطلقا وألا يجعل من هذا الباب غدا وراح واستخر وأحجز وأظهر»²⁵،

والخمسة الأوائل هي كان وأضحى وأصبح وأمسى وظل.... ويستعمل بمعنى صار الدالة على التحول من وصف إلى آخر كقوله تعالى: { فكانت هباء منبثا } (سورة الواقعة، الآية 06).

ومن أوجه التضمين في الفعل أيضا، إجراء المتعدي مجرى اللازم والعكس، إذ جعل التضمين وسيلة من وسائل تعديته، كقوله تعالى: { ولا تعزموا عقدة النكاح } (سورة البقرة، الآية 235) أي لا تنووا لأن عزم لا يتعدى إلا بحرف الجر "على" فتقول عزمت على كذا.²⁶

ومن الأفعال المتعدية لمفعول وجعلها التضمين لازمة "لا تعد" في قوله تعالى: { ولا تعد عينك عنهم } (سورة الكهف، الآية 28) تضمن الفعل معنى "تسهو" أو تغفل أو تنبو عنهم²⁷ وقوله تعالى: { وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا } (سورة النساء، الآية 02) هنا أصل الفعل "أكلوا" أن يتعدى بنفسه ولكن عدي بحرف "إلى" لتضمين "الأكل" معنى "الجمع" أو "الضم" فيكون المعنى لا تأكلوا أموالهم ولا تجمعوها وتضموها إلى أموالكم، فالكلمة المناسبة للسياق وللحرف "إلى" هي الجمع والضم، والقصد من الآية ليس مجرد النهي عن الأكل وإنما النهي عن أي ضرر بأموال الأيتام حتى غير الأكل، فالنهي جاء بأوجز عبارة واختصر كل الأضرار بمال اليتيم بلفظ "أكل".

وفي قوله تعالى: { عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا } (سورة الإنسان، الآية 06) جاء الفعل "يشرب" متعديا بالباء وعادة الفعل يشرب يتعدى بمن، والسر تضمن الفعل معنى "يروي" فيكون المعنى عينا يشرب منها ويروي بها عباد الله، فجاءت الباء لتلفت النظر إلى فعل لم يذكر ولكنه مضمن بالفعل يشرب وبقي حرف التعدية برغم حذف فعله والآية باقية على معناها بإشارة لطيفة.

وقد يتضمن الفعل معنى الحرف كتضمين "عسى" معنى "لعل" في قوله تعالى: { فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ } (سورة محمد الآية 22) فعملت عسى عمل لعل في نصب الاسم ورفع الخبر، جوازا عند ابن سراج والكوفيين، إذ يرون أن عسى حرف مطلق دال على الرجاء إذا تلاها اسم ظاهر أو إذا اتصل بها ضمير رفع، وتكون حرف بمنزلة لعل، إذا اتصل بها ضمير نصب فتتضمن معنى الرجاء²⁸.

ويجوز في كلاهما أن يقتزن الخبر بـ "أن" المصدرية كقوله تعالى: { عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم } (سورة الإسراء 08) وهذا دليل آخر على تقارض "عسى" و "لعل".

2.4. التضمين في الأسماء:

قد يفهم من كلام النحاة أن التضمين خاص بالأفعال لكثرة كلامهم عن هذا النوع، ولكن التضمين يدخل جميع أنواع الكلمة من اسم وفعل وحرف، قال ابن هشام «وفائدة التضمين أن يدل بكلمة واحدة على

معنى كلمتين يدل ذلك على ذلك أسماء الشرط والاستفهام»²⁹ وأسماء الإشارة والموصولة والمضمرات والظروف وأسماء الأعداد المركبة وهذه أسماء مبنية لتضمنها معنى الحرف ويقول ابن يعيش: «والأسباب الموجبة لبناء الاسم فردية تضمن معنى الحرف ومشاهدة الحرف والوقوع موضع الفعل المبنى...»³⁰.

ويرى أكثر النحاة السبب في بناءها تضمنها معنى الحرف كقوله تعالى: { هَذَا فَلْيُدْوِقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ } (من الآية 57 سورة ص)، فبني اسم الإشارة لتضمنه معنى حروف الشرط في معنى الجزاء، وقد تدخل الفاء في خبر الجزاء دون التغيير بذكر الموصول أو اسم الإشارة.

وفي قوله تعالى: { الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ } (من الآية 71 سورة البقرة)، فبعض الظروف السبب في بناءها تضمنها معنى حرف مثل الآن، مذ ومنذ ويقول الزجاج «بني لتضمنه معنى حرف الإشارة كأنك قلت هذا الوقت... وبني لتضمنه معنى التعريف لأن الألف واللام المملووظ بهما لم تعرفه ولا هو علم ولا مضمر ولا شيء من أقسام المعارف فيلزم أن يكون تعريفه باللام المقدر، واللام هنا زائدة زيادة لازمة كما لزم في "الذي" وفي اسم الله»³¹.

ويتضمن الاسم معنى الفعل ومن الأسماء العاملة عمل الفعل:

1. الأسماء الجامدة وهي المصدر واسم المصدر وأسماء الأفعال.

2. الأسماء المشتقة وهي اسم الفاعل واسم المفعول وصيغ المبالغة والصفات المشبهة، واسم التفضيل.

والفعل أقوى العوامل عند النحاة وما تضمن معناه من الأسماء يعمل عمله، كقوله تعالى: { وَ اطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْعَبَةٍ } (الآية 14 سورة البلد) فالمصدر يتضمن معنى الفعل وعمل عمله تعدية ولزم وفي كل حالاته ويقول ابن مالك «يعمل المصدر مطهرا مكبرا غير محدود ولا منعوت قبل تمامه...»³².

ويعمل كذلك اسم المصدر عمل فعله لتضمنه معناه وأسماء الأفعال التي هي أسماء تضمن معنى الفعل في الدلالة على الماضي أو الأمر أو المضارع كقوله تعالى: { فَلَا تَقُلْ هَهُمَا أَتِي } (من الآية 23 سورة الإسراء).

ومن الأسماء المشتقة المتضمنة فعلا ما جاء في قوله تعالى: { ذَلِكَ يَوْمٌ جَمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ } (سورة هود من الآية 103) فنجد اسم المفعول عمل عمل فعله المبنى للمجهول تعدية ولزوما، وعلى حد اسم الفاعل أيضا وقال ابن مالك «يعمل اسم المفعول عمل فعله مشروطا فيه ما شرط في اسم الفاعل»³³.

واسم الفاعل يعمل عمل فعله ويدل على الماضي والمستقبل المتضمن لمعنى المضارع والأمر كقوله تعالى: { وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ } (الكهف 18) وباسط هنا اسم فاعل وفي نفس الوقت صفة الكلب.

3.4. التضمين في الحروف:

التضمين في الحروف باب واسع جدا تناوله البصريون والكوفيون، فيقول الرضى « واعلم أنه إذا أمكن في كل حرف يتوهم خروجه عن أصله وكونه بمعنى كلمة أجزى أو زيادته أن يبقى على أصل معناه الموضوع له، ويضمن فعله المعدى به معنى من المعاني يستقم به الكلام فهو الأولى بل الواجب»³⁴ ومعنى هذا جواز إنابة حرف عن حرف إذا كان المقام يستدعي ذلك مع المناسبة بين الفعلين ومن أوجه التضمين بين الحروف نجد: التضمين بين الحروف والأفعال، التضمين بين الحروف المتقاربة في العمل والإهمال، التضمين بين الحروف والأسماء، التضمين بين الحروف في المعنى.

وهذه المسائل لا يميزها من يميز إبدال الحروف، ومن منع من ذلك على الإطلاق لزمه أن يتصف في التأويل الكثير مما ورد في هذا الباب، لأن في هذا الباب أشياء كثيرة بعد تأويلها على وجه البديل³⁵ وهذا القول لوجود من يميز الإنابة بين الحروف ووجود من يمنع ذلك ويذهب إلى التأويل والتضمين والحكم بالشذوذ وأمثلة تضمن الحرف في القرآن الكريم كثيرة جدا نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

قوله تعالى: {بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا} (سورة الزلزلة الآية 5) فتأتي اللام بمعنى إلى أي أوحى إليها وفي آية أخرى قال تعالى: {الحمد لله الذي هدانا لهذا} (من الآية 43 سورة الأعراف)، أي إلى هذا وفي موضع آخر {وأوحى ربك إلى النحل} (سورة النحل من الآية 68).

وقد تكون اللام بمعنى إلى الانتهاء الغاية كقوله تعالى: {سُقْنَاهُ لِيَلِدَ مَيْتٍ} (سورة الأعراف من الآية 57) أي إلى البلد وانتهى إلى بلد.

وفي قوله تعالى: {وَأَصْلَبْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ} (سورة طه الآية 71). أي عليها، وقال ابن الشجري: على استعملوها مكان في، يقولون أتيته على عهد فلان أي في عهد فلان ومنه {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ} (سورة البقرة من الآية 102)، أي في ملك سليمان³⁶.

ولا يسعنا المقام لذكر جميع وجوه التضمين في الحرف وهذا باب واسع، والحروف والأدوات المتضمنة بعضها بعضا كثيرة، وهو ضرب من البلاغة والتوسع في المعنى وشواهد كثيرة في القرآن الكريم.

5. فوائد التضمين النحوي:

يتضح جليا أن التضمين النحوي من الموضوعات التي يتوقف عليها فهم القرآن الكريم، ذلك أن مقاصد الكلام مبنية على معاني الحروف، وهذا مبحث مهم يتوقف عليه إبراز المقاصد والأغراض النحوية والدلالية في الجمل والتراكيب وهنا تكمن أسرار النظم.

ويمكن حصر فوائد التضمين في ثلاث:

1.5. الایجاز:

لأن التضمين يعبر بلفظ واحد عن مجموع معنيين، والایجاز عند العلماء هو حذف زيادات الألفاظ، وهو فضيلة من فضائل الكلام ونوع شريف من أنواعه³⁷.

2.5. التوسع في استعمال اللفظ:

فيؤدي مؤدى غيره، أي إن اللفظ يوظف في التعبير عن معنى لم يكن يدل عليه في أصل الوضع، «فتتسع دلالة الألفاظ التي يدخلها التضمين وهذا يؤدي إلى اتساع اللغة، وزيادة قدرتها على استيعاب المعاني والتعبير عنها»³⁸.

3.5. المبالغة والتوكيد:

انفرد الزمخشري في التنبيه عليها فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ (يوسف الآية 5) والمعنى إن قصصتها عليهم كادوك، فإن قلت هلا قيل فيكيدوك. كما قيل فيكيدوني؟ قلت ضمن معنى فعل يتعدى باللام، ليفيد معنى الكيد، مع إفادة معنى الفعل المتضمن، فيكون أكد وابلغ في التخويف³⁹.

6. الخاتمة:

من خلال ما تناولناه يتبين لنا أن للتضمين دورا مهما في اتساع اللغة وهو أسلوب يزيد المعنى قوة وتدفق مع الایجاز والاختصار وسواء عرف وجهه في التراكيب أم خفي، فهو وسيلة لتوليد المعاني الجديدة، وتوسيع الوظائف التي تؤديها الألفاظ.

- أول من استقر عنده مفهوم التضمين هو الزمخشري وعده من الأساليب البلاغية.
- التضمين بين كلمة وأخرى قد يكون في المعنى فقط كما في بعض الأسماء للحمل على المعنى المتشابه أو على النقيض في بعض الحالات، كما يكون في المعنى والعمل كما بين الحروف.
- ولقد تناول العديد من المفسرين التضمين ووجهوا له كثيرا من الآيات مثل الطبري وابن كثير، وقال عنه السيوطي أنه لا يأتي في كلام العرب إلا لفائدة زائدة، وقال ابن هشام أن الكلمة فيه مؤدى كلمتين ووصفه ابن جني بقوله هو باب طريف لطيف ومصون وبطين.

7. الهوامش:

- ¹ ابن منظور، لسان العرب، مادة (ض، م، ن)، دار الصادر، بيروت، ط1، 2000، ص257.
- ² الأزهرى أبو منصور، تهذيب اللغة، ت عبد العليم البردوني، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ج2، مادة (ض، م، ن)، ص49.
- ³ عبد الجبار توامة، التعدية والتضمن في الأفعال العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية (بن عكنون الجزائر) 3-1994، ص91. محمد نديم فاضل التضمن النحوي في القرآن الكريم للدكتور ، ج1، مكتبة دار الزمان، المدينة المنورة، 2001، ص92 وغيرهم.
- ⁴ ابن جني الخصائص ، ت محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1952، ج1، ص308.
- ⁵ عبد الجبار توامة، التعدية والتضمن، مصدر سابق، ص90، الدكتور محمد نديم فاضل التضمن النحوي في القرآن الكريم، مرجع سابق، ج1، ص92
- ⁶ ابن جني، الخصائص ، مرجع سابق، ص310.
- ⁷ الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، تح: مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، ص717.
- ⁸ ابن كمال باشا (ت940هـ) رسائل اللغوية، تح: الدكتور ناصر بن سعد الرشيد، النادي الأدبي، الرياض، 1970، الرسالة رقم 43 في التضمن، ص87.
- ⁹ جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر، تح: نايز ترحيني، ط2، دار الكتب العربي، بيروت، 1993، ج1، ص180.
- ¹⁰ نور الدين بن محمد الأشموني شرح الأشموني على ألفية بن مالك، لأبي الحسن علي نور، تح: محمد محي الدين، دار الكتب، بيروت، 1998، ط1، ج2، ص95
- ¹¹ ابن جني، الخصائص، مصدر سابق، ج2، ص315.
- ¹² سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، منشورات دار الكتاب العلمية، بيروت، ط3، 1983، ج1، ص51.
- ¹³ ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعراب تح: مازن المبارك محمد علي عبد الله، طبعة دار الفكر، بيروت، ط1، 2001، ص642.
- ¹⁴ الزركشي، البرهان في علوم القرآن ، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار 'حياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركائه، ج3، 1957، ص338
- ¹⁵ عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، مصر، ط1961، 4، ص564.
- ¹⁶ ابن جني، الخصائص، مرجع سابق، ج1، ص237.
- ¹⁷ ابن منظور، لسان العرب ، مادة قرض، مرجع سابق.
- ¹⁸ ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، مرجع سابق، تح: محمد محي الدين، ص5
- ¹⁹ ابن الأثير، المثل السائر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت وصيدا، 1995، ج1، ص102.
- ²⁰ ابن كمال باشا، رسالة في التضمن في العربية، مرجع سابق، ص77.
- ²¹ السيوطي، الأشباه والنظائر في النحو ، مرجع سابق، ص124.
- ²² المرجع نفسه، ص26، وابن يعيش، شرح المفصل، تح: اميل بديع يعقوب، 2001، ط4، بيروت، مكتبة المتنبي، ص106.
- ²³ السيوطي الأشباه والنظائر ، ط1، ص127.

- ²⁴ ابن مالك، شرح الكافية الشافية تح د عبد المنعم هديدي، دار المأمون للتراث، مكة المكرمة، ج2، ص290.
- ²⁵ المصدر نفسه، ج3، ص809.
- ²⁶ أحمد حسن حامد، التضمين في العربية، مرجع سابق، ص55.
- ²⁷ محمد نديم فاضل، التضمين النحوي في القرآن الكريم، مرجع سابق، 2001، ص178.
- ²⁸ ابن السراج، الأصول في النحو، ت عبد الحسين الفتلي مؤسسة الرسالة ج3 ط3 1996 ص878.
- ²⁹ المغني مرجع سابق، ج2 ص289.
- ³⁰ ابن يعيش، شرح المفصل، مرجع سابق، 2001، ج4، ص104.
- ³¹ عبد الله بن الحسين بن أبي البقاء العبكري، التبيان في إعراب القرآن تح: علي محمد البجاوي ناشره عيسى البايي الحلبي 1976/ج1/ص43.
- ³² جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الحيايبي الأندلسي، شرح التسهيل لابن مالك، تح: عبدالرحمن السيد -محمد المختون- دار المهجر، ج3 ص102.
- ³³ المرجع نفسه، ج3، ص87.
- ³⁴ ابن مالك، شرح الكافية، مرجع سابق، ج2، ص233.
- ³⁵ عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، تح: مصطفى السقا، حامد عبد المجيد، دار الكتاب المصرية، القاهرة، 1996، ص21.
- ³⁶ جمال الدين، شرح التسهيل، مرجع سابق ج3 ص124.
- ³⁷ ابن الأثير، المثل السائر، مرجع سابق، ص68.
- ³⁸ ابن كمال باشا، رسائل لغوية، مرجع سابق، ص57.
- ³⁹ الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ص444.

8. المصادر والمراجع:

• القرآن الكريم

- 1/ ابن الأثير، المثل السائر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت وصيدا، 1995، ج1.
- 2/ ابن السراج، الأصول في النحو، ت عبد الحسين الفتلي مؤسسة الرسالة ج3 ط3 1996.
- 3/ ابن جني الخصائص، ت محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1952، ج1.
- 4/ ابن كمال باشا (ت940هـ) رسائل اللغوية، تح: الدكتور ناصر بن سعد الرشيد، النادي الأدبي، الرياض، 1970، الرسالة رقم 43 في التضمين.
- 5/ ابن مالك، شرح الكافية الشافية تح د عبد المنعم هديدي، دار المأمون للتراث، مكة المكرمة، ج2.
- 6/ ابن منظور، لسان العرب، مادة (ض، م، ن)، دار الصادر، بيروت، ط1، 2000.
- 7/ ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعراب تح: مازن المبارك محمد علي عبد الله، طبعة دار الفكر، بيروت، ط1، 2001.

- 8/الأزهري أبو منصور، تهذيب اللغة، ت عبد العليم البردوني، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ج2، مادة (ض، م، ن).
- 9/جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر، تح: نايز ترحيني، ط2، دار الكتب العربي، بيروت، 1993، ج1.
- 10/جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الحيايني الأندلسي، شرح التسهيل لابن مالك، تح: عبدالرحمن السيد -محمد المختون- دار الهجر، ج3.
- 11/الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار 'حياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركائه، ج3، 1957.
- 12/الزمرخشي، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، تح: مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي.
- 13/سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، منشورات دار الكتاب العلمية، بيروت، ط3، 1983، ج1.
- 14/السيوطي الأشباه والنظائر، ط1.
- 15/عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، مصر، ط1961، ج4.
- 16/عبد الجبار توامة، التعدية والتضمن في الأفعال العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية(بن عكنون الجزائر) 3-1994.
- 17/محمد نديم فاضل التضمنين النحوي في القرآن الكريم للدكتور، ج1، مكتبة دار الزمان، المدينة المنورة، 2001.
- 18/عبد الله بن الحسين بن أبي البقاء العبكري، التبيان في إعراب القرآن تح: علي محمد البجاوي ناشره عيسى البابي الحلبي 1976/ج1.
- 19/عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، تح: مصطفى السقا، حامد عبد المجيد، دار الكتاب المصرية، القاهرة، 1996.
- 20/نور الدين بن محمد الأشموني شرح الأشموني على ألفية بن مالك، لأبي الحسن علي نور، تح: محمد محي الدين، دار الكتب، بيروت، 1998، ط1، ج2.